المبحث الثاني
النثر

النثر الفني موضوعاته وخصائصه :

وقفنا في دراستنا المتقدمة على النثر الأندلسي في عصوره الأولى وتعرضنا لأنماطه المختلفة وأوردنا شواهد عليها، ولكننا نقف الآن أمام نتاج أدبي ضخم حين ندرس النثر في هذا العصر فقد قطعت الأندلس شوطاً كبيراً في ميدان الأدب وجابت مساحة عريضة في مجال فنونه فلهذا العصر ينتمي أكبر أعلام النثر الأندلسي فهو عهد تألق الأدب بشطريه، شعراً ونثراً، وأبرز هؤلاء الأعلام الذين وصلت آثارهم النثرية:

ابن زيدون (ت٤٦٣هـ)، ابن اللبانة (ت٥٠٧هـ)، ابن عبدون (ت٥٢٠هـ)، ابن خاقان (ت٥٢٩هـ)، ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ)، أبو عبد الله ابن أبي الخصال (ت٥٤٠هـ)، ابن بسام (ت٥٤٢هـ) صاحب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الذي يشير فيما ينقله لنا الكلاعي إلى أشهر الكتاب في عصره بقوله: "كتاب العصر ورؤساء الأعيان أربعة: كلاعيان وفهريان، أما الكلاعيان، فأبو بكر بن القصيرة وأبو محمد بن عبد الغفور، وأما الفهريان: فأبو القاسم بن الجد، وأبو محمد بن عبدون".[1]

ولقد باهى ابن سعيد[2]. وهو في مقام المنافرة بين الأندلس والمغرب. بجهود الأندلسيين في مجال النثر، فأشار إلى أبي عبد الله بن أبي الخصال، وكتابه سراج الأدب، صنفه على طريقة النوادر للقالي، وزهر الآداب للحصري، كما نوه بأبيه وكتاب أبي عبيد البكري، اللآلي وهو على منّزع أمالي القالي، ونوّه بجهود ابن السيد البطليوسي في كتابيه الاقتضاب، وشرح سقط الزند، وأشار أخيراً إلى شروح الأعلم الشنتمري لشعر المتنبي والحماسة.

ونستطيع أن نستدل على شيوع هذا الفن وولع الكتاب به، وتعلقهم بألوانه المستحسنة من النثر المشرقي، ما حدثنا به ابن عبد الغفور الكلاعي (ت٥٥٠هـ) في كتابه أحكام صنعة الكلام وهو أوسع كتاب يمثل عصر المرابطين في موضوع النثر. ومؤلفه أديب بارع كان أبوه وجدّه ناثرين كبيرين وشاعرين مجيدين، ترجمت لهما كتب التراجم،[3] حيث ذكر أنه اجتمع مع صديق في أربعة مجالس وحين أخذ الحديث في ضروب الفصاحة والبلاغة اتهمه صاحبه بأنه لا يعرف كيف يكتب في السلطانيات، إن تلك التهمة حملت الكلاعي على تأليف كتاب على مثال السجع السلطاني لأبي العلاء، ثم أنهما تذاكرا ما لأبي العلاء من تواليف بديعة فقال صاحبه: "أنه لا يضاهى فيها ولا

---

١ أحكام صنعة الكلام، ١١٠.
٢ النفح، ١٨٤/٣.
٣ أحكام صنعة الكلام، ٢٢، ٥٦. وينظر تاريخ الأدب الأندلسي، ١١٣/٢.

يجارى ولا يعارض في واحد منها ولا يبارى"،[1] فعاد ابن عبد الغفور ليثبت تفوقه فكتب رسالة الساجعة والغريب معارضة لرسالة أبي العلاء الصاهل والشاجح ثم عارض سقط الزند بتأليف سماه ثمرة الألباب وكذلك عارض خطبة كتاب الفصيح، بخطبة الإصلاح.[2]

ويعلق إحسان عباس "هذا جهد واحد من المعجبين بأبي العلاء..!".[3]

أما ابن أبي الخصال فقد أعجب هو الآخر بآثار المعري فعارض لزومياته في ملقى السبيل كذلك فعل أبو الطاهر محمد السرقطي المعروف بابن الأشتروكوبني (ت٤٣٨هـ) في مقاماته التي بناها على لزوم ما لا يلزم وسماها المقامات اللزومية وهي خمسون مقامة عارض بها مقامات الحريري.[4]

وبعد أن يحدثنا الكلاعي في مجلسه الرابع مع صاحبه وخصمه الذي يكيل له التهم، عن فضل البيان، وما جاء فيه من آيات وأحاديث، فينتقل إلى فضل آخر ليتحدث عن الترجيح بين المنظوم والمنثور، وعلى الرغم من كثرة الخائضين والراكضين فيه، وأن المنظوم مزين بالوزن والقافية فإنه فضل المنثور على المنظوم، وفصّل ذلك في كتاب ثمرة الألباب.

وأما أدلته في التفضيل فهي دينية بدرجة رئيسة، معتمداً على تفسير الآيات والأحاديث وبعد، أن يعدد لنا عيوب الشعر الكثيرة يخلص إلى أنه لا ينكر فضائل الشعر، لكن سوء استخدامه هو الذي يجعله ينظر إليه هذه النظرة.[5]

وفكرة تفضيل النثر على الشعر وردت عند غيره من كتاب عصر الطوائف، ومنهم ابن شهيد الأندلسي في رسالته التوابع والزوابع، حيث قال بأنهم أولى بالتقديم من الشعراء.[6]

وبعد أن تستقر لدى الكلاعي حقيقة أهمية النثر ينتقل ليتحدث في فصل عن الكتابة وآدابها، وما يتعلق بها من أسبابها في الباب الأول يتناول فيه رتبة الخط وتسوية البطاقة، والعنوان، والاستفتاح، والصلاة على النبي وصدور الرسائل والدعاء، والسلام في أحد عشر فصلاً ويتناول في الباب الثاني أنماط الترسيل، العاطل والحالي والمصنوع والمرصّع وغيرها في ثمانية فصول ثم يفرد فصولاً عن الخطبة والمقامات وغيرها ويختم كتابه بالوقوف على قوانين الكتابة وآدابها.

ومن الكتب المتخصصة في نثر عصر الطوائف، التي سبقت الكلاعي في أحكامه، كتاب تسهيل السبيل إلى تعلم الترسيل، بتمثيل المماثلات وتصنيف المخاطبات،[7] لأبي

---

١ أحكام صنعة الكلام، ص ٢٦.
٢ أحكام صنعة الكلام، ٢٨. وينظر تيارات النقد الأندلسي، ٣٣ . ٣٤.
٣ تاريخ الأدب الأندلسي، ١١٣/٢.
٤ تاريخ الأدب الأندلسي، ٣١٧/٢.
٥ أحكام صنعة الكلام، ٣٦ . ٣٩.
٦ التوابع والزوابع، ص ٩١.
٧ أقوم بتحقيقه على نسختين مخطوطتين وهو يتألف من (١٩٤) ورقة.

عبد الله الحميدي (ت٤٨٨هـ)، ألفه سنة ٤٥٤هـ، وهو أضخم كتاب في نماذج النثر الأندلسي لكاتب في عصر الطوائف، وجميع رسائله تدخل في باب الإخوانيات فقد وعد أن يؤلف كتاباً آخر في رسائل السلطانيات.[1]

أراد من تأليفه أن تكون فصوله وأمثلته قوانين لمن أراد تحسين لفظه وتقويم لسانه، ومداراة أهل زمانه، فيقوي بذلك لسانه،[2] وخص به المتعلمين المبتدئين كما يشير إلى ذلك، في مقدمة كتابه،[3] لكن القارئ يعلم من نظره في فصول الكتاب أنه على درجة عالية من الكتابة، ومنهجه قائم على اختيار موضوعات الرسائل المختلفة، والمتنوعة. حيث يمثل لكل حالة بخمسة أمثلة متتابعة... وتكاد تكون أمثلته متقاربة الحجم.

ويستهل كتابه بالحديث عن ضروب البلاغة، في الخطب والتأليف والرسائل، كما يحدثنا عن الفصاحة، وبعد التمهيد ينتقل إلى الحديث عن آلات الامتثال، ويريد بها عدة الكاتب الجيد، وصفات المداد والقلم والورق، وللأندلسيين رسائل في هذا المجال،[4] ثم يعرض لنا أبواب الكتاب وفصوله التي مثل لها بأمثلته وقد جعل أبوابه ثمانية تفاوتت فصولها حسب موضوعات كل باب كثرة وقلة، على النحو التالي:

١, في مثالات أدعية الأوقات، وهو في ستة عشر فصلاً.
٢, في أمثلة اللقاء وتصنيف أهله في الدعاء، في عشرة فصول.
٣. في شذور التهنئة بأحوال السرور وهو في أربعين فصلاً.
٤, فيما يجري مجرى تسلية المحزون، في سبعة فصول.
٥, فيما يقال عند إرادة الأفعال في ستة فصول.
٦, في أسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد في ستة عشر فصلاً.
٧, في أمثلة أصناف التعزية في سبعة فصول.
٨. في مفردات نوادر المخاطبات في سبعة فصول.

ويجتمع لدينا مما تقدم مائة وتسعة فصول، في كل فصل خمسة أمثلة يتألف منها ٥٤٥ مثالاً.

ومن الملاحظات الطريفة التي أشار إليها الحميدي. على سبيل الاستطراد. خلال حديثه عن كتابه الذي يعزم على تأليفه أن الرسائل السلطانية تختلف عن الإخوانية أنها لا يستجاز من إيراد الشعر في أثنائها، ما يستجاز في الرسائل الإخوانية، كذلك أشار إلى أنه أضاف ما وجده من رسائل لغيره في كتابه ليكون ذلك أكثر عوناً للمستزيد.[5]

---

١ تسهيل السبيل، ورقة ١٩٣/أ.
٢ نفسه، ورقة ٢/ب.
٣ نفسه، ورقة ٨/ب.
٤ النثر الأندلسي، ٢٧١.
٥ من الكتب الحديثة: رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف، الإسكندرية، يتضمن (٣٦) رسالة ومقامتين ينشر أكثرها لأول مرة، وهي تتصل بالقرن السادس الهجري (عهد المرابطين).

ولضخامة مقدار النتاج الأندلسي وكثرته، فضلاً عن جودته، ذلك ما لفت أنظار الدارسين فأفردوه بدراساتهم وبحوثهم، ومن هذه الدراسات التي وقفت عليها، رسالة حازم عبد الله خضر النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، وقد خلص الباحث من دراسته إلى أن النصوص النثرية التي تنتمي لهذا العصر تفوق الحصر، وتجعل من الصعوبة الإحاطة بها واستيعابها، فقد تنوعت موضوعاتها فتناولت السياسة والمجتمع والفرد والجماعة، فكان من فصول الرسالة التي صنفت تلك الرسائل: الرسائل الدينية، الرسائل الاجتماعية، الرسائل الأخوية، الرسائل الديوانية، الرسائل الوصفية، كذلك تناولت أنماطاً مختلفة من النثر القصصي والمقامات.

وقد لاحظ الباحث كذلك أن أكثر النماذج المتوفرة كانت في غرضها وموضوعها مطبوعة بطابع ديني، وأن الرسائل الدينية ليست إلا جزءاً من مجمل تلك الرسائل وذلك أمر طبعي يتسق مع طبيعة الحياة التي كانت تعنى بتلك القيم وأن صلة المجتمع كانت قوية بها، فكانت رسائل الكتاب في ميادين السياسة، حيث لاحظ قوة صلة الكاتب بملوك عصره وأمرائه، وكانت له مواقف من الأحداث المهمة آنذاك وكذلك تناولت الأخلاق والتعامل والاقتصاد، فقد صورت لنا تلك الرسائل طبيعة المجتمع وملامحه وسماته وما اتصل به من ضعف وتخاذل وفرقة بين الأمراء، انتهت إلى دعوة لجمع الشمل.

أما الرسائل الأخوية الكثيرة فهي تعكس لنا العلاقات بين الأصدقاء والأصحاب من الأدباء في أحوالهم المختلفة، واعتماد تلك الرسائل على أسلوب الهزل والمداعبة لدفع السأم عن النفس والترويح عنها.

وقد سجلت الرسائل الديوانية أحوال السياسة وطبيعة المشكلات التي تعترضهم والأساليب المتبعة في معالجة تلك المشكلات وحلها.

وكانت الرسائل الوصفية ثمرة منسجمة مع طبيعة البيئة الأندلسية والمجتمع الأندلسي وتفاعل الأديب معهما، حيث عكس لنا صورة متألقة لا تقل عن دور الشعر في هذا المقام.

أما النثر القصصي فقد عالج أموراً خيالية وأخرى واقعية عبرت عن المجتمع الأندلسي في جوانبه المختلفة وقد جنحت في أساليبها إلى الفكاهة والسخرية.

وقد استطاعت تلك الرسائل أن تعطينا صورة واضحة متكاملة السمات عن الشخصية الأندلسية التي اختلفت عن قرينتها المشرقية بحكم اختلاف البيئة، واختلاف عناصر المجتمع الأندلسي وطبيعة مشكلاته الاجتماعية والسياسية، ومن هنا فإن النظرة المتأنية تهدينا إلى القول بأنه على الرغم من كون جذور الثقافتين المشرقية والأندلسية واحدة، فإن النثر الأندلسي، شأنه في ذلك شأن الشعر، والفنون الأخرى، استطاع أن يكون شخصيته الذووية، من خلال ظروف شبه الجزيرة الأندلسية، بعناصرها المختلفة، سياسية واجتماعية وثقافية... وكان النصيب الأكبر يعود لتلك

البيئة، ولذلك النسيج المتنوع من عناصر المجتمع وهذا ما توصلت إليه دراسة حازم عبد الله في بعض نتائجها.[١]

ومن الدراسات الحديثة، النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، لعلي بن محمد، تناول فيه دراسة نصوص نثرية، بلغت حوالي ثلاثمائة، لثمانين منشئ وكاتباً وفي ثلاثة أبواب، أولها للحياة السياسية والثقافية، والثاني في أغراض النثر ومضامينه الرئيسة، والثالث في أشكال النثر وخصائصه الفنية، وهي دراسة شاملة وافية بالنثر في القرن الخامس،[٢] ومن الدراسات الحديثة كذلك، دراسة فوزي سعد عيسى، رسائل ومقامات أندلسية، وفيها نصوص نثرية جديدة.[٣]

وقد لاحظ عدد من الدارسين قلة نصوص الخطابة التي وصلت إلينا وهي ضرب مهم من ضروب النثر. على الرغم مما يشير إلى رواجها وذيوعها،[٤] وقدموا في ذلك تعليلات كثيرة لتفسير الظاهرة، منهم حازم عبد الله،[٥] ومصطفى السيوفي،[٦] منها الضياع، أو الانشغال عن الخطابة بموضوعات الرسائل، وربما لأنهم لم يعنوا بتذوق هذا النوع من النثر لشيوعه فيهم، ويمكن أن يستفاد هذا المعنى في تعليل الجاحظ لضياع كثير من أدب العرب شعره ونثره: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام وليست هناك معاناة، ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فلم يحفظ إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم، وإن شيئاً هذا الذي في أيدينا جزء منه بالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب..."[٧].

"ومشكلة الخطابة. أيا كان نوعها. أنها نص للإلقاء وليس للقراءة، ولهذا أفلت من سجل التاريخ ملايين الخطب ولم يبق منها إلا النزر اليسير لأسباب خاصة".[٨]

وقد لاحظنا أن من خصائص الأساليب النثرية في عصر الطوائف، ازدياد ظاهرة المزج بين الشعر والنثر، مما يستدل معه أن الكتاب كانوا بشكل عام شعراء، أو أنهم جمعوا بين رياستي الشعر والنثر، على نحو ما يقول أحمد أمين "وكثير من الأدباء كان يجمع بين النثر والشعر وكان عند الأدباء ملكة لطيفة يميزوا بها بين الموضوعات التي تصلح للشعر والتي تصلح للنثر، فهم يشعرون حين تهيم عواطفهم، ويحسون أنهم في حاجة إلى تعبير وجداني يغذيها، ويلجأون إلى النثر عندما يكون الموضوع أميل إلى

---

١ ينظر النثر الأندلسي، ص ٥٧٣.
٢ والدراسة في جزئين، ط دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
٣ تضمنت ستاً وثلاثين نصاً نثرياً جديداً معتمداً على مخطوطة لمؤلف مجهول، ط منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٩.
٤ الأدب الأندلسي في عهد المرابطين، ١١٤.
٥ النثر الأندلسي، ٩١.
٦ ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ٢٣٣.
٧ البيان والتبيين، ٤/٢٨.
٨ مجلة الأدب الإسلامي، العدد ١١، ١٩٩٦، الافتتاحية، ص ١١ بعنوان "نص ليس للقراءة".

العقل"،[1] وهي تدل على براعة أدباء الأندلس حيث جادت قرائحهم بهذه الفنون وذلك لأن. الكتابة والشعر شيئان متنافران لتنافر طباع أهلهما، ومن أمثالهم: "اثنان قلما يجتمعان: اللسان البليغ والشعر الجيد..."،[2] "ومن الشعراء من لا يستطيع الخطابة وكذلك حال الخطباء في قريض الشعر".[3] ولابن بسام وابن خلدون كلام مثل هذا في عدم اجتماع النثر والشعر.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أصالة النثر في هذا العصر وخصوصيته، لأن الدراسات التي كتبت عن الأندلس. في عمومها. ظلت تتهم النثر الأندلسي. شأنه شأن الأدب الأندلسي بشكل عام. بأنه أدب مقلد، "بل تظل مصرّة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها"[4] وهي وجهة نظر كثير من الباحثين حيث ظلوا يعقدون الموازنات بين النثرين المشرقي والأندلسي، ويخلصون إلى تقليده للأدب المشرقي بل وجد الشكعة أن الفرق بينهما كالفرق بين الأستاذ والتلميذ،[5] إلا أن من الدارسين من نفى هذه الشبهة ولم ينظر إلى النثر الأندلسي على أنه نثر مقلد لشقيقه المشرقي،[6] وقد حدد لنا حازم عبد الله أبرز خصائص النثر من حيث الشكل والمضمون. فمن الناحية الأولى وجد:[7]

ميلها إلى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة، وقدم جملة من الاحتمالات هي:[8]

١, ربما لأنهم مالوا إلى نوع من التخصص كما حصل لأبي حفص بن برد في فصول الحمد وبعض الرسائل الدينية الأخرى.

٢, أن الرسائل حذفت مقدماتها للاختصار.

٣, أن هذا النهج ميل إلى البساطة، والبعد عن التعقيد.

٤. إنهم في هذا السبيل أرادوا الخروج على التقاليد المشرقية المتبعة هناك.

وكثرة احتفالها بجمل الدعاء والاعتراض، وتنويعها بين الشعر والنثر، وميلها إلى الإطناب، وكثرة الاقتباس من القرآن والحديث، وتضمنها أسلوب الحوار والقصص وأسلوب السخرية والفكاهة، وكانت الألفاظ المستخدمة تعتمد السجع والازدواج والجناس.

وأما من حيث المضمون،[9] فقد مالت الرسائل إلى نزعة الترادف والتكرار، وكان في مقدمة تلك المعاني، المعتقدات والأفكار الإسلامية، كذلك تناولت مشكلات الحياة

---

١ ظهر الإسلام، ٣/٢٠٦ . ٢٠٧.
٢ أحكام صنعة الكلام، ٣٩. والقول من البيان والتبين، ١/٢٤٣.
٣ البيان والتبيين، ١/٢٠٩.
٤ الأدب الأندلسي، الشكعة، ٥٧٣.
٥ نفسه، ٥٧٠.
٦ النثر الأندلسي، ٥٢٥.
٧ نفسه، ٣٥٩ وما بعدها.
٨ نفسه، ٣٦٣.
٩ نفسه، ١ ما بعدها.

السياسية حيث كانت قوية الصلة بالحكام والأمراء، كما صورت المجتمع تصويراً دقيقاً إلى حد بعيد، وجاءت تحفل بقوة العاطفة في الرسائل الدينية والأخوية والوصفية، أما الرسائل الديوانية فكانت العاطفة فيها ضعيفة وكانت الأساليب المعتمدة في التعبير عن هذه المضامين: الخيال بما يتضمنه من تشبيه واستعارة وأساليب الطباق والمقابلة.

وفن المقامات الذي نشأ في المشرق، وصل إلى الأندلس، وأصبح له شخصية متميزة عن صنوه في الموضوعات والأساليب، بسط في ذلك الحديث د. إحسان عباس.[1] وفصلت فيه رسائل جامعية منها رسالة قصي عدنان سعيد.[2]

ولا يفوتنا أن ننوه بأهم الفنون النثرية، التي أبدع فيها الأندلسيون في هذا العصر، أدب المناظرات، وهو من الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي في عهد مبكر فمن أمثلته المناظرة التي أجراها الجاحظ بين صاحب الكلب وصاحب الديك في كتابه الحيوان، وأن له كتاباً آخر هو سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف، ولكن أدباء الأندلس كانوا. كما يرى عبد السلام سرحان. بذلك أشهر وكان هذا اللون لديهم أكثر، ولذلك ذكروا به، وذكر بهم، حتى نسب إليهم دون سواهم.[3]

ويرى تلميذه مصطفى السيوفي أن هذا اللون من التعبير لم يعرف في المشرق الغربي على الوضع الذي صار إليه في الأندلس، بل لا نجاوز الصواب إذا قلنا: إن المشارقة لم يعرفوه إلا بعد اقتباسهم نماذجه من الأندلس فهو بحق أندلسي الوجه واليد واللسان.[4]

وأشهر أدباء هذا العصر أبو حفص بن برد، الذي عده السيوفي مخترع هذا الفن وأول من كتب في هذا الموضوع ووجد في مناظراته أنها تدل على سعة خيال الأديب وحسن ذوقه في انتقاء الألفاظ ونفاذ بصره بمواقع الكلام، بالإضافة إلى ميله إلى الأسلوب القصصي الذي لم يعرف في الأدب المشرقي، ذلك الأسلوب الذي افتن به الأندلسيون فعرف لهم في إطار المحاورات بين الورد والأزاهير.[5]

وممن اشتهر بهذا الفن أبو عمر الباجي،[6] وأبو الوليد الحميري في كتابه البديع في وصف الربيع حيث أجرى محاورات كثيرة بين الزهور، وكذلك أبو بكر الجزار السرقسطي الذي ألف كتاب بادرة العصر وفائدة المصر وجعله مناظرة بينه وبين خصمه أبي الحسن البرجي وقد وصلت إلينا نقول من هذا الكتاب.[7]

ويمكن أن تدخل رسالة التوابع والزوابع في باب المناظرات كذلك لوضوح هذا

---

١ فن المقامات بالأندلس نشأته وتطوره وسماته، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٩٥.

٢

٣ مقالات وبحوث، ٢٣٩.

٤ ملامح التجديد في النثر الأندلسي، ١٢٨.

٥ نفسه، ١٤٢.

٦ الذخيرة، ١١٦/٢ . ١١٧.

٧ ينظر بحثنا دراسة في ديوان أبي بكر الجزار السرقسطي، ص ٢٦٠ . ٢٦٩، مجلة آداب المستنصرية، العدد ١٩٨٧/١٥.

الأسلوب فيها.

وإليك هذا النموذج من رسالة أبي حفص بن برد الأصغر في المناظرة بين السيف والقلم وقد جعلها رسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري، وبعد أن يذكر ما تشابه من خصالهما ومناقبهما وأنهما سلمان لارتقاء المراتب وطريقان لنهج الشرف الرفيع وشفيعان لا يؤخر تشفيعهما، انتقل إلى المناظرة بينهما:[1]

"فقال القلم: ها، الله أكبر! أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك، ويُحيرُ جنانك، وبديهة تملأ سمعك، وتضيق ذرعك، خير الأقوال الحق، وأحمد السجايا الصدق والأفضل من فضله الله عز وجل في تنزيله، مقسماً به لرسوله، فقال: ﴿ن. والقلم وما يسطرون﴾ (القلم: ١)، وقال: ﴿اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم﴾ (العلق: ٤) فجلّ من مُقسِم، وعز من قسم، فما تراني، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره، وجلت بين قلب الإنسان وخاطره؟ لقد أخذتُ الفضل برمته، وقدت الفخر بأزمته.

فقال السيف: عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة، لا أسرّ ولكن أعلن، قيمةُ كل امرئٍ ما يحسن، إن عاتقاً حمل نجادي لسعيد، وإن عضداً بات وسادي لسديد، وإن فتى اتخذني دليله لمهدي، وإن امرأ صيرني رسيله لمفديّ، يشق مني الدجى بمصباح، ويقابل كل باب بمفتاح، أفصحُ والبطل قد خرس، وابتسم والأجل قد عبس، أقضي فلا أنصف، وأمضي فلا أصرف، أزري بالوفاء، وأهتك هتك الرداء".

ومن أمثلة النثر لهذا العصر ما جاء في ديوان ابن خفاجة الأندلسي في صفة متنزه:[2]

"ولما أكب الغمام إكباباً، لم نجد معه إغباباً، واتصل المطر اتصالاً، لم نلف معه انفصالاً، ثم أذن الله. تعالى. للصحو أن يُطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل الكتاب، وطفقت السماء تخلع جلبابها، والشمس تحط نقابها، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت، وقد تحلت. ذهبت في لُمة من إخواني نستبق إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضاً، فلا ندفع إلا إلى غدير، نميرٍ، قد استدارت منه في كل قرارة سماء، سحائبها غماء، وانساب في كل تلعةٍ حباب، جلدته حباب، فترددنا بتلك الأباطح، نتهادى تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشيٍ، على بساط وشيٍ، فإذا مر بغدير نسجه درعاً وأحكمه صنعاً، وإن عثر بجدول شطب منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى إلا بطاحا، مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هنالك كتائب، فألقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول".

ولن يستطيع الباحث أن يغفل أشهر أعلام هذا العصر ابن زيدون الذي ترك لنا

---

١ الذخيرة، ١/١/٤٥.

٢ ديوان ابن خفاجة، رقم ٢٤٦، ص ٣١٧.

رسائل قليلة إلا أنها مشهورة:

١, الرسالة الجدية.

٢, الرسالة الهزلية.

٣, رسالة إلى أستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من السجن مستشفعاً به لإصدار العفو عنه.

٤, رسالة للمظفر بن الأفطس في شفاعة صديق.

٥. ثلاث رسائل في التمهيد للرحيل إلى إشبيلية، اثنتان للمعتضد بن عباد سماهما علي عبد العظيم العباديتين والثالثة العامرية إلى أبي عامر بن مسلمة بإشبيلية.

الرسالة الجدية والهزلية:

حظيت الرسالتان الأوليتان بالقسط الأوفر من عناية الدارسين والشراح فقد شرح الرسالة الجدية صلاح الدين الصفدي (٧٦٤هـ) بكتاب تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون.

أما الرسالة الهزلية فقد شرحها ابن نباته المصري (٧٦٨هـ) بكتاب أسماه سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون،[١] والرسالة كتبها ابن زيدون على لسان ولاده إلى ابن عبدوس وتلتقي الرسالتان في جملة خصائص ومميزات من حيث الأسلوب.[٢]

١. فهما إطالة وإطناب والرسالة الجدية أقل إسهاباً وأكثر اتزاناً وتعقلاً من الهزلية، فالجدية في حوالي ١٢٥ سطراً، والهزلية في حوالي ١٥٢ سطراً.

٢. فهما صناعة لفظية معتمدة على السجع وازدواج العبارة ولقد بالغ في صنعته مما يجعل شوقي ضيف يرى أن ذوقه في نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع في المشرق.

٣, وتشترك الرسالتان أيضاً في قوة الخيال وكونه عنصراً مهماً في التعبير والتصوير.

٤, كما تشتركان في الإكثار من استعمال الأمثال والحكم وذكر الأحداث التاريخية.

٥. وذكر وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الحنيف.

وتتميز الرسالة الجدية بقوة العاطفة وعمقها إذ فيها تصوير حالة الشاعر فقد كان يرزح تحت وطأة السجن وينوء بآلامه وشماتة الأعداء به، وقد كتبها في السجن ووجهها إلى الأمير أبي الحزم بن جهور.

إن ابن زيدون في أسلوبه متأثر بطريقة ابن العميد (ت ٣٦٠هـ) ومدرسته التي تعتمد السجع والازدواج منهجاً وهو متأثر برسالة التربيع والتدوير للجاحظ في رسالته الهزلية ويرى مصطفى الشكعة أنه في رسائله تلميذ لأستاذ الرسالة الإخوانية عند المشارقة

---

١ وللرسالتين شروح أخرى كثيرة، ينظر: ديوان ابن زيدون ورسائله، ص ١١٠.

٢ ينظر ابن زيدون، عصره حياته أدبه، ص ٤١٠، ٤١٢، ٤١٣.

بديع الزمان الهمداني ينهج نهجه ويسجع سجعه يميل نحوه ويلتزم طريقه.[1]

ولا شك أن ثقافة ابن زيدون الواسعة تجعل معرفة الأستاذ الذي تأثر به أمراً غير متيسر فأنت تجد في رسائله أسلوب الجاحظ وأبي إسحاق الصابي وابن العميد، استمع إليه في رسالته الجدية يقول:

"يا مولاي، أبقاك الله، ماضي حد العزم، واريَ زَند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتني. أعزّك الله. لباس نعمائك، وعطلتني من حلى إيناسك، وأظمأتني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كف حياطتك، وغضَضَت عني طرفَ حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي إليك، فلا غرو قد يغص بالماء شاربُه ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحَذِر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين قد يسبقه جهد الحريص.

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهونُ غير شماتة الحساد"

ويقول في رسالته الهزلية:

"أما بعد: أيّها المصاب بعقله، المورط بجهله، البيّن سَقَطُه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغترارِه، الأعمى في شمس نهاره، السّاقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب، وإنك راسلتني مستهدياً. من صلتي. ما صَغرت منه أيدي أمثالك، متصدياً. من خلتي. لما قُرِعَتْ دونه صنوف أشكالك"، حتى يقول:

"بطليوسَ سوَّى الاسطرلاب بتدبيرك، وصوَّر الكرة على تقديرك وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك، كلاهما قلدك في العلاج وسألك عن المزاج، واستوصفك بتركيب الأعضاء، واستشارك في الدّاء والدّواء".

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي:

تعريف بالمؤلف:

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وكنيته أبو عامر، وكنية أبيه أبو مروان، أشجعي يرجع نسبه إلى الوضاح الذي كان مع الضحاك بن قيس في مرج راهط سنة ٦٥هـ، ورث المكانة عن آبائه كابراً عن كابر فقد كان جده الأعلى وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وجده الأدنى وزيراً للخليفة الناصر، وأبوه عاملاً للمنصور بن أبي عامر.

ولد بقرطبة سنة ٣٨٢هـ وتقلب في أحضان النعمة ومهاد السعادة والبلهنية فانعكست نشأته الأولى على حياته فيما بعد فمال إلى اللهو والبطالة وأسرف في الكرم

---

١ الأدب الأندلسي، ٥٩٢.